

د.أحمد خيري العمري





19.5.2013

إدرينالين



آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

سلسلة ضوء في المجرة

أدرينالين

أحمد خيري العمري



آفاق معرفة متجددة



أدرينالين

أدرينالين/أحمد خيري العمري .- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥ .- ٧٢ص: ٢٠سم .- (سلسلة ضوء في المجرة).

١-٨١٨,٠٣ ع م ر أ ٢- العنوان ٣- العمري
٤- السلسلة



ثقافة الاختلاف

2012=1433

دار الفكر - دمشق - برامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

السلسلة ضوء في المجرة

أدرينالين

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ١٨٨٠.٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:1-59239-472-8

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

٧٢ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الثالثة: ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م

ط١ / ٢٠٠٥م

مقدمة الناشر

حين وصلت كتيبات هذه السلسلة إلى دار الفكر لطباعتها وتقديمها للقراء توقفت عندها طويلاً، ذلك لأنّ فيها نَفَساً من نوع خاص، وأفكاراً معروضة بطريقة خاصّة.. وكل جديد يتوقف المرء عنده، ويفكر فيه، ويسأل عنه، يمايزه مع غيره... يتردد، يحار، يقدم رجلاً، ويؤخر أخرى. يخشى أن يتوغل فيه... يخاف.

والكلمة تخيف... وبعض الكلمات ترعب...

والكلمة مسؤولية... والمسؤولية لها ما وراءها...

وحين تصدر الكلمة، وتكون أحياناً كالقنبلة التي تحدث الانفجار، حين ذلك لا يمكن أن ترجع أو تُسترجع.

على أن أجزاء هذه السلسلة ليست قنابل، ولا تحدث الأذى، ولكنها أجراس قوية وضعيفة توقظ النائمين، وتنبه الغافلين، وتهدي الحيارى.

وربما يكون فيها صوت عالٍ وصدى عنيف... هو صوت التحذير، وأصداء الإنذار والتذكير.

هل تقوم كلمات هذه السلسلة بكل هذه المسؤولية؟!

بسم الله الرّحمن الرَّحيم

يا صديق

أسبوع، وأسبوع، وأسبوع، سبعة أسابيع حتى الآن وأنا أحاول أن أكتب، عبثاً.

أسبوع، وأسبوع، وأسبوع، سبعة أسابيع حتى الآن وأنا أحاول أن أمسك القلم - كما أفعل الآن - لكني أجد أصابعي عاجزة حتى عن رفعه على الورقة البيضاء.

سبعة أسابيع حتى الآن يا صديق والكلمات نحلات قارصة تطاردني، فألاحقها، وأحاول الإمساك بها، فإذا بها تختفي، ثم تعود. فتقرصني وتطاردني، فألاحقها مجدداً، ولكنها تختفي من جديد، لتعود..

سبعة أسابيع حتى الآن يا صديق والفشل الكاسح قصتي وقصة هذا العالم كله من حولي. الفشل، الفشل، الفشل. الفشل الحقيقي والصارخ. الفشل الساخر الذي لا تستره لافتتي الضوئية الجديدة، ولا

تخفيه ابتسامتي المتقنة ولا قناعي المهذب المتقن التزوير..

الفشل! لسبعة أسابيع وهو سيد هذا العالم الذي أعيش فيه، أتنفسه مع كل شهيق، وأتنهده مع كل زفير، وأهرب منه في كل حين، لكن هذا الشعور المرير المريض بالإحباط يشدني ويقيدني ويعيدني قابضاً كل مرة..

نعم، إنه الفشل، نعرفه جميعاً، لعل بعضاً منا لا يعرف غيره حتى لو ادعى غير ذلك، وحتى لو لبس لبوس الناجحين، وانتفخ نفختهم، ومشى مشيتهم..

الفشل هو أحياناً أوفى أصدقائنا وأكثرهم ملاءمة لنا، رغم أن ذلك لا يروق لنا، وأحياناً نتجاهله..

ولسبعة أسابيع الآن والفشل أقرب أصدقائي يا صديق. وخلف أسوار عالية محكمة أنا حبيس هذا الشعور المرير بالإحباط، دونما ثقب في السور، دونما معول، دونما حبل للتسلق.

لكن ليس دونما أمل.

الفشل؟ ربما يكون أحياناً صديقي وصديقك وصديق الجميع يا صديق..

لكن المهم ألا يكون الصديق الوحيد.

.. وهذا الفشل الكاسح وهذا الشعور الكسيح، المهم ألا يكون نقطة في نهاية السطر.

لعلك تتساءل، لماذا هذا الشعور الحاد بالفشل؟

أقول لك: إذا كنت قد استطعت مرات أن أقتنص الكلمات وأسطر الأوراق، فإن نجاحي السابق هو فشلي الحالي.

لسبعة أسابيع خلت يا صديق، كل كلمة كتبتها تذكرني بكلمة أخرى لم أكتبها، كل ورقة سطرتها تذكرني بأخرى بيضاء فارغة تعذبني وتستفزني، كل فكرة استطعت يوماً أن أعبر عنها، صارت تذكرني بهذه الفكرة التي أحاول معها دونما جدوى، والفكرة تارة تصير مثل الشبح الهائم في البيت القديم الخالي، وتارة تصير مثل صندوق مغلق أصم، بلا قفل ولا مفتاح ولا حتى شق جانبي.. وأخرى مثل حشرة مزعجة تطن حول رأسي..

سبعة أسابيع يا صديق، وكل ورقة بيضاء تعذبني.. وتستفزني..

☆ ☆ ☆

.. ولو كانت الفكرة غريبة عني، لكان عذابي أقل. لكن هذه الفكرة التي أحاول اقتناصها هي - بطريقة ما - قصة حياتي، أو على الأقل، وبطريقة أبسط، فإني عايشت الفكرة وعانيت منها وعذبتني، لقد احترفتها وأحرقتني، ومثل الفراشة التي لا تملك إلا أن تنجذب للنار، كنت في كل مرة أقف على أعتاب

الفكرة، لكن على مفترق الطريق منها، وأعرف أني سأتألم، لكن أتقدم لأخترقها.. وأحترق بنارها..

فكرة هي قصة حياتي، كان يجب، عندما أقرر أن أكتب عنها، فقط أن أضع الأوراق البيض أمامي، لأنزف الحبر من صدري ورئتي، وأملأ الأوراق البيضاء الواحدة تلو الأخرى..

لكن فجأة، لا شيء. ولسبعة أسابيع يا صديق صار الفشل صديقي المقرب وربما الوحيد، وكلما مررت من أمامها، تهرب عيناي من تلك الأوراق البيضاء.

☆ ☆ ☆

ولسبعة أسابيع الآن، وأنا صياد فاشل، أحاول عبثاً أن أقتنص ذلك الهدهد الغيران الذي تحدث عنه صاحبنا؛ ذلك الهدهد الغيران الشهير، الذي طار من اليمن إلى فلسطين من أجل قضية هو مؤمن بها، طار وجناحاه غيرتُه وألمه ليحمل قضيته وأخباره وارتفاع ضغط دمه بسبب ما رآه، إلى سليمان..

ذلك الهدهد الغيران، الذي اجتاز حوالي ثلث العالم القديم من أجل غيرته وألمه، هو ما كنت أبحث عنه، طيلة سبعة أسابيع ..

وحيرني الهدهد وعذبني. كنت في لحظة أتصور أني رأيته، فأتربص له، وأعد عدتي لاقتناصه، ولكن لسبعة أسابيع: لا شيء.

وجدت مكان الهدهد الغيران، ببغاوات غبية لا تفقه ما تقول، وبلابل حيرانة تغرد على غير هدى، وطيوراً مختلفة قد تكون جميلة، لكنها ويا للأسف محنطة، لكني لم أجد ذلك الهدهد الغيران صاحب القضية..

ولسبعة أسابيع ظللت أبحث عنه عبثاً..

مثل قرصان مهزوم، لسبعة أسابيع ظللت أجوب البحار السبعة بحثاً عن جزيرة واحدة صغيرة تؤويني..

لكن: لسبعة أسابيع لا شيء. فقط الأوراق البيضاء المستفزة، والببغاوات الغبية، وبحار العالم السبعة الفارغة..

لسبعة أسابيع كاملة.

إلى أن حدث شيء واحد قبل نصف أسبوع.

☆ ☆ ☆

لعلك لم تنتبه لشيء حدث قبل نصف أسبوع، لكنك ستذكر الواقعة عندما سأرويها لك الآن.

لعلك ستقول في نفسك: إنني أمارس عادتي في تضخيم الأمور والمبالغة بها وتحويلها إلى (دراما) من أجل أوراقي التي أكتبها.. لن أناقش ذلك! خاصة أنني أفترض أنك قلت ذلك في نفسك.

الجمعة الماضية، على الهاتف، كنت تحدثني

باسترخاء تام عن مشكلتك المزمنة مع الهاتف وخطوطه المتشابكة. كنت أعرف طبعاً تفاصيل المشكلة.

لكنك كنت تحدثني عما حدث قبلها بليلة واحدة؛ كان هناك خط معين شديد التشابك مع خطك الهاتفي، ويؤثر بشكل مباشر على اتصالك بالبريد الإلكتروني وبالإنترنت، وكان ذلك كله يمكن أن يكون محتملاً وعادياً، لولا أن الخط الآخر تشغله باستمرار فتاة لعوب تمارس لعبة شد الحبل مع أربع شبان (أو أكثر؟) دفعة واحدة.

ولما كانت طبيعة اللعبة التي تحترفها هذه الفتاة تفرض وقتاً معيناً متأخراً، بعد منتصف الليل بالتأكيد، ولما كانت طبيعة شد الحبل تفرض نوعاً من المكالمات الطويلة البطيئة حتى تنضج الطبخة جيداً، ولما كان عدد اللاعبين أكثر من المعتاد، فإن اللعب والطحن يستمر عادة الليل كله، حتى انبلاج الفجر..

وكان ذلك يعني - ضمن أشياء أخرى كثيرة - أنك لا تتمكن من الدخول إلى شبكة الإنترنت خصوصاً في الوقت الذي يناسبك، والذي لا وقت غيره يمكنك الدخول فيه..

وكنت تروي لي، أن صدرك ضاق بهذا كله - فخرجت بصوتك من السماعة وتحدثت إليها مباشرة،

طالباً منها بتهذيب وأدب جم، أن تترك لك مجالاً من الوقت لتدخل إلى الشبكة كل ليلة، منبهاً إياها - إلى ما تعرفه جيداً من دون أن تعير له أدنى اهتمام - من أنه يمكن لك أن تسمع كل كلامها، رغم أنك كنت تغلق السماعة في كل مرة تكون هي في خضم لعبتها. قلت هذا، وقلت أيضاً شيئاً آخر عن حقها الشخصي في استعمال الهاتف كما تريد حتى الصباح، بشرط ألا يؤثر ذلك على حقك الشخصي في استعمال الهاتف أنت الآخر..

كنت تتحدث وصوتك مسترخ تماماً، منتهى الهدوء. منتهى الروتين. لم يكن في نبرة صوتك أي انزعاج حقيقي (باستثناء ذلك الذي يخص الإنترنت)..

لا. لم يكن هناك غضب ولا انزعاج، بل هدوء واسترخاء. لو أنك كنت تحدثني عن الطقس الحار في العام قبل الماضي لما كان صوتك إلا أكثر تأثراً وتهدجاً..

بل إننا لو أدخلنا صوتك لواحد من أجهزة الكمبيوتر الحساسة التي تحلل الصوت، لما وجدنا غير بيانات منتظمة، اعتيادية، لا بركان فيها ولا زلزال..

تأملت في صوتك مجسماً، ووددت لو أني أنظر إليك لحظتها..

وعبر أسلاك الهاتف دلفت، كانت متشابكة كما

تعلم فضللت طريقي قليلاً، ثم وجدتك، وخرجت من سماعة الهاتف عندك، لم تلاحظني طبعاً، كنت لا تزال تتحدث معي على طرف السماعة الآخر، وكان صوتك لا يزال مسترخياً تماماً، منتهى الهدوء والروتين.

وكان وجهك أيضاً هادئ القسمات والملامح، يعكس هدوء صوتك واسترخاءه، لم يكن هناك ما يضايقك باستثناء مشكلة الإنترنت.

ورأيت الهدهد، هناك عند النافذة.

ذلك أن وجهك - الهادئ والمسترخي تماماً - ذكرني بوجه آخر، صحيح أني لم أره، لكني اعتقدت أنه يشبه وجهك تماماً في هذه اللحظة، بينما هو هادئ ومسترخٍ.

إنه وجه آخر، هادئ، لم يتمعر ولم تتعكر قسماته..

☆ ☆ ☆

يتمعر؟ لعل الكلمة ثقيلة، تقول في نفسك.

نعم. الكلمة ثقيلة، والكلام أثقل.

فتأهب، واستعد، وتمعرا.

☆ ☆ ☆

في الحديث القدسي الذي يرويه ذاك الذي لا يكذب أبداً عن ربّه، يقول: أمر ربّ العزة عبده جبريل

أن يخسف الأرض بقرية عم فيها الفساد، فراجعه جبريل ليستفهم قائلاً: إن بها عبدك الصالح فلاناً.

فقال له ربّ العزة: **به فابدأ.**

فاستغرب جبريل: لماذا يا ربّ؟.

فأجابه الله ذلك الجواب الذي يحتاج منا إلى أن نخاف على أنفسنا؛ قال له: إن وجهه لم يتمعر يوماً فيَّ.

☆ ☆ ☆

هذا العبد الصالح في تلك القرية الفاسدة، لم يتمعر وجهه يوماً في الله، لم يغضب يوماً لله، لم يتغير وجهه من أجل حد من حدود الله، أو حق من حقوقه، لم يجر الدم الغاضب إلى وجهه، لم يحمرَّ وجهه من أجل حرام مرتكب أو حلال منتهك..

عبد صالح، لكن لم يتمعر وجهه يوماً في الله؛ ظل وجهه محايداً وهادئاً، مسترخياً، رغم قريته الفاسدة، ولذلك قال ربّ العزة لجبريل: **به فابدأ.**

☆ ☆ ☆

عبد صالح، في قرية فاسدة.

إنه يصلي ويصوم ويزكي، ويؤدي الفرائض كلها، ربما بإتقان وحرص. لكن، وجهه ظل هادئاً مسترخياً محايداً وهو يمر بمظاهر الفساد في قريته..

إنه يغدو ويجيء للمسجد، وربما يقوم أحياناً الليل، وربما يخصص جزءاً من وقته لقراءة القرآن، ولعله لديه ورد يومي من الأذكار، هو في أغلب الأحيان حريص عليه..

إنه عموماً وعلى الأغلب حريص على عبادته، يجاهد مع نفسه في سبيل أدائها وإتقانها، ربما كل فرض في وقته، مع محاولات لاستحضار الخشوع. ربما دمعة هنا وشهقة هناك. ربما بعض العلم الشرعي هنا وبعض الأحاديث هناك..

لكن وجهه لا علاقة له بذلك كله.

إنه لم يتمعر يوماً في الله.

وعندما كان يمر - ربما حتى في طريقه إلى المسجد - بمظاهر الرذيلة والفساد التي تعج بها قريته الفاسدة، كان وجهه يظل محايداً، هادئاً مسترخياً، لا مبالياً..

وكان أن قال الله لعبده جبريل: به فابدأ.

☆ ☆ ☆

عبد صالح في قرية فاسدة..

رغم حرصه على العبادة، رغم قراءته للقرآن، فإن لديه مشكلة جسيمة قد تؤدي به إلى جهنم.

مشكلة حقيقية، في الفهم أساساً.

إنه يتصور أنه يحسن عملاً، لكنه في الآخرة هو من الخاسرين.

إنه يقدم لنفسه رشوة فيقول: لا تزر وازرة وزر أخرى، وكل نفس بما كسبت رهينة. وهو لايعلم أنه ما دام وجهه ظل محايداً لا مبالياً، فإن ظهره النحيل سيحمل أوزار القرية كلها، وسيكون رهيناً بما اكتسبت قريته الفاسدة كلها..

ولأنه لم يهتم، لم يبال، لم يتغير وجهه، لم يتمعر، فإنه سيدفع الثمن غالياً، بل إن قائمة الحساب ستبدأ به. «به فابدأ»!.

☆ ☆ ☆

ومشكلة هذا العبد الصالح، أن فهمه للتدين كان فهماً فردياً انعزالياً. ظل دينه محبوساً في قوقعة مغلقة هي قفصه الصدري.. لم يحاول أن يخرجه منه، لم يعلم يوماً أن هناك عالماً خارج النافذة ينتظر أن يخرج إليه ليعلن له ما يعرفه وما اختزنه في قفصه الصدري..

مشكلة هذا العبد الصالح أن فهمه للتدين جعله يتصور من العبادات محض طوق نجاة يلقى إليه ليتمسك به عندما تغرق السفينة. وهو يجهل أن الطوفان عندما يأتي لن يميز بين أحد، وأن الصاعقة عندما تضرب، قد تبدأ به أولاً، وأن محور الزلزال قد

يَمُرُّ أول ما يمر ببيته، وأن النار عندما تندلع ستحرق وجهه هو.. وجهه الذي لم يتمعر يوماً في الله..

☆ ☆ ☆

عبد صالح في قرية فاسدة.

جاره الفاسد كان معدنه طيباً، لكنه لم يحاول معه. صديقه شارب الخمر كان يمكن أن يمتنع عنها، لكنه كان يقول: «لا تزر وازرة وزر أخرى». أخته السافرة كان يمكن أن ترتدي الحجاب، وأخوه الذي يفعل كذا وكذا كان يمكن أن يتوب..

لكن العبد الصالح لا أقول: لم يحاول فحسب، بل إن وجهه لم يتمعر، لم يشعر بالغضب.. لم يشعر بشيء. ولذلك «**به فابدا**».



عبد صالح في قرية فاسدة.

وعندما اشتبك هاتفه مع هاتف آخر، كاشفاً عن أحاديث في منتهى الجرأة على ذاك الذي يسمع ويرى على مرأى ومسمع منه عز وجل، على الأخص في جوف الليل؛ في الوقت الأخطر، عندما يتنزل عز وجل عارضاً رحمته ومغفرته وإجابته للدعوات، عندما حصل ذلك، فإن وجه العبد الصالح لم يتمعر من أجل الحد الإلهي المتجاوز، أو الحق الإلهي المنتهك،

تمعر وجهه فقط من أجل حقه في استعمال الهاتف والإنترنت، الذي تجاوزته تلك الفتاة المبتذلة، رغم إيمانه المبدئي بحقها في استعمال الهاتف، بشرط ألا يؤثر على حقه..

نعم، تغير وجهه، تمعر من أجل الهاتف والإنترنت.

ولكن ليس من أجل شيء آخر.

عبد صالح في قرية فاسدة.

.. وبه فابدأ.

☆ ☆ ☆

ها أنا أظلمك مرة أخرى. لعلك تقول ذلك في نفسك.

ربما، صراحة أتمنى ذلك؛ أتمنى لو أني كنت ظالمك، وأن وجهك تمعر من أجل حق الله المنتهك.. لكني - بصراحة أيضاً - لم ألاحظ ذلك عندما دلفت إلى خطوط الهاتف المتشابكة من طرف السماعة عندك.

كان وجهك هادئاً مسترخياً محايداً؛ حقك في الهاتف مقابل حقها في الهاتف.

.. وكان ذلك الهدهد الغيران عند النافذة.

☆ ☆ ☆

ذلك العبد الصالح، الذي عاش حياة التقوى والعبادة في القرية الفاسدة، ربما كان خجولاً يخاف

من مواجهة الناس. ربما لم يكن لديه أسلوب، ربما لم يكن عنده علم بالآيات والأحاديث، ربما كان يتلعثم، ربما كان يتأتئ.

ربما كان عنده ماض حافل بالمعاصي قبل أن يتوب الله عليه، وكان يخجل من مواجهة الناس ماضيه ذاك.

ربما منعه ذلك كله من محاولته تغيير الناس.

ذلك كله ليس مشكلة.

المشكلة كلها كانت أن وجهه لم يتمعر في الله.

لو أنه لم يفعل شيئاً، ولم يحدث أحداً، ولم يحاول أن يغير أحداً من أهل القرية، سوى أن وجهه تغير في الله، سوى أن ملامحه بان عليها الغضب من أجل حدود الله وحقوقه، فقط لو أن الدم تدفق إلى وجهه عندما رأى حرمات الله المنتهكة، فقط لو أنه احمرَّ غضباً وغيظاً من أجل الله..

.. لما كان العذاب قد بُدِئ به.

وربما لما مرَّ الزلزال في بيته.

ربما لما كان «به فابدأ» لو أن وجهه تمعر فقط.

☆ ☆ ☆

المشكلة أن تمعر الوجه مسألة ليست بهذه البساطة.

بمعنى آخر، ليست هناك وصفة سحرية تجعل

الوجه اللامبالي الهادئ المحايد للعبد الصالح في القرية الفاسدة، يتمعر.

ليس هناك زر واحد تستطيع أن تضغط عليه، فيبدأ وجهك بالتمعر، حيث يجب أن يتمعر، ويعود للهدوء والسكينة في مواطن الهدوء والسكينة.

للأسف، لا يوجد زر كهذا، ولا وصفة كهذه.

الأمر صعب جداً، ومعقد جداً، وفي الوقت نفسه، أحياناً على الأقل، يكون بسيطاً جداً، تلقائياً جداً.

صعب جداً لأنه يشمل فهمك كله، وحساسيتك كلها، وغيرتك كلها، وأوعيتك الدمويةكلها، وأعصابك كلها، وجزءاً غير يسير من هورموناتك، وأيضاً عضلات قلبك، وعضلات وجهك، وكل الشعيرات الدموية التي تنتهي فيه..

وبسيط جداً، لأنه عندما يحدث، يحدث بتلقائية، بشكل لا إرادي، بشكل عفوي، العبد الصالح الذي يتمعر وجهه في الله لا يعرف بالضبط كيف يحدث له هذا، إنه يجهل تماماً (الميكانيكية) التي يحدث بها هذا، لكنه يكون جزءاً منها، كما أنه لا يستطيع أن يوقف هذه الآلية، لا يمكنه أن يضغط على الزر ليوقف العملية، إنه محض جزء من تفاعل متسلسل هو بالتأكيد حلقة مهمة من حلقاته، لكنه ليس الحلقة الأهم، ولا الحلقة الأخيرة..

هذا التمعر الغامض - الذي يحمي العباد الصالحين من أن يبدأ بهم العذاب - هو مثل كل الأشياء الأساسية في هذا العالم، بسيط جداً وتلقائي جداً، لكن في الوقت نفسه، عميق جداً، معقد جداً..

هذا التمعر الغامض، الذي قد يكون احمراراً في الوجه، أو فوراناً في الدم، أو صداعاً في الرأس أو أرقاً يجعل السرير مزروعاً بالأشواك، أو قلقاً غامضاً يستولي على مفاتيح حياتك ويدفعك نحو الأخذ بأيدي الناس..

هذا التمعر الغامض، هو الإنكار الذي يخرج من القلب ليظهر على الوجه، إنه ليس بالضبط أضعف الإيمان، لقد خرج من هذه الخانة ليرتقي في الشعب العليا. ما دام قد ظهر على الوجه، فممكن أن يصل إلى اللسان، وإلى اليد، إلى العقل..

ما دام قد ظهر على الوجه، فممكن أن يصل لباقي الجوارح، لكنه ما كان ليصل إليها لولا أن مر بالوجه، بذلك التمعر الغامض الواضح، الذي هو محور موضوعنا كله.

☆ ☆ ☆

وهذا التمعر - الذي يمنع العذاب، والذي يفتقده ذاك العبد الصالح في تلك القرية الفاسدة - هو - في

النهاية - تلك الهوية الحقيقية التي تفصح، من أقرب الطرق وأوضحها، عن حقيقة انتمائك.

فالهوية الحقيقية ليست تلك الورقة الصادرة عن الدوائر الرسمية، وهي المليئة بالأختام والأرقام التي يفترض أن تعبر عن حقيقتك..

.. والهوية الحقيقية ليست تلك المعلومات التي يملؤون بها الخانات في حقول المعلومات، بمعطيات لم تبذل جهداً في اكتساب معظمها، بل ربما ورثتها وراثة، أو اكتسبتها اكتساباً لا إرادياً، تلك المعطيات: اللون، الطول، .. والعمر..

وأيضاً ... خانة الدين.

☆ ☆ ☆

والهوية الحقيقية ليست هي المظهر الذي يفترض أن يعبر عن حقيقتك.

.. الكثيرون - والكثيرات - يحرصون على إبراز هويتهم عبر المظهر. منهم متدينون، وهوية تدينهم تبرز عبر التزامهم بمظاهر السنة وهيئاتها؛ إنهم ملتحون، وهذا يعني أنهم متدينون وملتزمون بالسنة، وذلك يبرز فوراً كما لو كانوا يحملون هوية في أذقانهم.

.. ومنهن محجبات؛ يرتدين الحجاب الإسلامي

وفق ضوابطه وشروطه لا يشف ولا يصف، وليس زينة في حد ذاته ولا ثوب شهرة.. إلخ، إنهن متحجبات، وحجابهن ليس في ذلك (الإيشارب) المائع الذي يفصح أكثر مما يحجب، ويصف أكثر مما يغطي..

إنهن متحجبات فعلاً، ومظهرهن منذ الوهلة الأولى، يعطيك انطباعاً عن هوياتهن، وعن انتمائهن الحقيقي. لكن هناك شيء، سيكون مصداقاً لهذه الهوية، أو تكذيباً لها..

هناك محك، هو الامتحان الحقيقي الذي يبين عمق هذه الهوية، أو زيفها؛ كونها مجرد مظهر آخر، ربما يغطي على حقيقة أكثر مما يبرز أخرى.

هناك محك، هو الذي يبين هل اللحية محض (ديكور) مثل الطحالب دونما جذور، دونما حقيقة انتماء؟ أم إنها تعبر عن جذور عميقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

هناك محك، هو الذي يبين هل الحجاب محض زي تنكري، يخفي الخواء ويحجبه، أكثر مما يظهر الالتزام ويبرزه.

هذا المحك هو العلامة التشخيصية التي لا تخطئ، هو الهوية الحقيقية التي لا يمكن تزويرها أو استنساخها..

هذا المحك هو الحقيقة في الداخل، خلف الستار، وراء (الكواليس).

وهو الذي يبين صدق المظاهر من كذبها..

وهو يظهر غالباً على الوجه بطريقة لا إرادية..

إنه يظهر في ذلك التمعر على الوجه خلف اللحية، عندما تمر المعصية. إنه يظهر في ذلك الدم الذي يجري في العروق خلف الحجاب، عندما يجاهر بانتهاك الحدود..

إنه المحك الحقيقي، الذي يبين صدق الالتزام من زيفه.

☆ ☆ ☆

وكثيرون نراهم ونعرفهم ونميزهم، لديهم مظهر الالتزام وهيئته وسننه ورواتبه، لكن هذا المظهر يظل محض (ديكور) في النهاية، ذلك أن وجوههم تظل باردة (محايدة) لا مبالية، كان الدم قد جف في عروقها، عندما يمرون أمام المعصية، أو عندما تمر من أمامهم..

ربما لديهم على جباههم تلك العلامة السوداء من كثرة السجود، لكن سيماهم على وجوههم من أثر السجود هي شيء آخر غير تلك العلامة، **إن كثرة السجود الحقيقي والصلة الحقيقية مع الله تعالى تورث سيماء أخرى، وعلامة أخرى؛ هي ذلك التمعر في الوجه، ذلك التغير والاحمرار، ذلك الدم الذي يجري ويعلن ويرفض ويستنكر..**

ربما هم حريصون على عباداتهم، وعلى هيئات السنن، وعلى مظاهر الالتزام. ربما هم مخلصون في شعائرهم، حريصون على فرائضها ونوافلها. ربما لا يتركون قيام الليل، ولا يفوتون ركعتي الضحى.. وربما هن شديدات الحرص على الحجاب، يصمن كل اثنين وخميس، ويتصدقن..

.. ولكن، هناك شيء ينقص ذلك كله، ويكاد أن يحبطه بأكمله.

.. وأستطيع أن أراهن أن ذاك العبد الصالح في تلك القرية كان لديه لحية حسب أصول السنة، وكان يقوم الليل، ويصلي الضحى، وكان لديه على جبهته أثر مباشر من كثرة اتصاله بالأرض في أثناء السجود.. ولكن ما نفعه ذلك كله..

كان ينقصه أن يكون لديه سيماء على وجهه من أثر السجود لله، من أثر الصلة الحقيقية بربِّ العزة.

وتلك العلامة الفارقة المميزة في وجهه، هي ذلك التمعر في الله..

☆ ☆ ☆

بين الانتماء وعدمه، خيط رفيع فاصل، هو في معظم الأحوال لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة.

بين الجذر العميق الثابت، والجذر السطحي الهائم،

فرق كبير ومسافة شاسعة يمكن أن تختصر في معنى واحد..

تلك النقطة الصغيرة، التي تقلب الموازين، وتمنح المعاني وتزيح العذاب، وتؤجل الزلازل وتجفف الطوفان، هي الغيرة.

نعم. الغيرة هي معنى الانتماء الحقيقي. الغيرة هي التي تمتحن الالتزام وتقرر هل هو محض (ديكور) وهمي لمشهد سينمائي أم إنه بناء حقيقي؟. الغيرة هي التي تقرر هل التدين بالنسبة لصاحبه هو محض طوق نجاة فردي، لن ينقذ بالتأكيد في بحر متلاطم الأمواج، أم هو سفينة إنقاذ جماعية، الفرد فيها مهم بمثل أهمية الجماعة؟

.. الغيرة هي التي تقرر، وتمحص، وتصهر وتميز..

.. الغيرة، القليل منها يكفي، القليل منها يغير، لكن في معظم الأحيان، حتى هذا القليل غير موجود.

☆ ☆ ☆

اسأل نفسك هذه الأسئلة:

هل تحس بالألم لأن الناس لا يصلون؟ هل تشعر بالألم لأنهم لا يبالون، ولا يهتمون، وعندما يصيح (الله أكبر) يولون وجوههم و.. يتكبرون.

هل تشعر بالألم - لأن فيهم أناساً خبرت معادنهم الطيبة، أصدقاء وأقرباء، ومع ذلك لا يصلون؟.

هل تحس بالألم، وأنت تراهم في المعاصي منهمكين، عن الله وأوامره غافلين؟

هل تمشي على الأشواك في الطرقات، وأنت ترى الناس يمضون إلى جهنم غير عابئين بشيء؛ الفتيات في عمر الورد خلعن الحياء والعفة، وانطلقن كاسيات عاريات مائلات مميلات، والشبان خلفهن مثل الكلاب تخرج ألسنتها اللاهثة؟

هل تشعر بالحزن من أجل هؤلاء الفتيات وأنت تراهن مكبلات بقيود الشيطان، وهن يسحبن إلى جهنم.. أم إنك لا تشعر بشيء تجاههن؟ أم إنك فهمت أن غضّ البصر يعني ألا تنظر ولا تشعر ولا تعتبرهن أصلاً موجودات؟

هل تشعر بالأسى من أجل هؤلاء العصاة والعاصيات؟ هل يعصرك قلبك وأنت تراهم معرضين عن الله وهو مقبل عليهن، وعليهم؟

هل تشعر بالقلق، لأنك ترى ذلك كله يزيد، وشوكة الشيطان تقوى، وأتباعه المغرر بهم يزدادون، يغررون بغيرهم معهم؟

هل تشعر بالشفقة تجاه هؤلاء؟

هل تشعر بالغضب من أجلهم، لأنك أصلاً لا

تكرههم، بل تحبهم، لكن تكره هذه القيود التي تركوا الشيطان يضعها في أيديهم؟

هل ينتفض الدم في عروقك، وأنت تسمع كلمة الكفر تخرج من الأفواه؟ هل يضرب عرق ما في جبهتك أو رقبتك، أو صمامات قلبك، وأنت تراهم في حياة كلها معاص وكبائر وبعد عن ربِّ العزة، وبعد، لا يرون غير أن نمط الحياة هذا هو العادي والسائد، والذي كل الناس يمارسونه..

هل تحس بالعجز، وأنت حبيس داخل قفصك الصدري، والناس محبوسون داخل غفلتهم، وأنت تمد يديك لتخرج وتخرجهم.. ولكن عبثاً؟

هل يدق قلبك دقات الخطر؟ هل تستشعر أن الطوفان قادم، وتكاد تسمع صوت الماء وهو يجرف كل شيء؟ هل تحس بالزلزال وهو يكاد يضرب تحتك، وتحتهم.. وتحت الجميع؟

(لن أقول لك: أعطِ لنفسك نقطتين إذا أجبت بنعم، ولا تعط شيئاً إذا أجبت بلا، ثم احسب عدد نقاطك، فإذا كانت أكثر من كذا نقطة، فأنت كذا.. على طريقة الاختبارات الشخصية الأمريكية السطحية..).

لكني سأسألك، هل دقت فيك هذه الأسئلة شيئاً؟ هل تشعر أصلاً بأشياء كهذه، أم إن مشاعرك ماتت؟ هل تحس

بألم كهذا، يأس كهذا، بنبض كهذا.. أم إن أحاسيسك قد تبلدت؟.

هل تملك غيرة على دينك أم إنك بلا غيرة؟

☆ ☆ ☆

وهل تعرف إجابات العبد الصالح، في القرية الفاسدة على هذه الأسئلة؟



الذين يصورون الإيمان على أنه محض طمأنينة وهدوء، وسعادة وراحة بال، لا بد أن يكونوا في خانة من اثنتين: إما أنهم أغبياء، أو أنهم جاهلون.

إنهم يروجون عن الإيمان مفهوماً في غاية النقص، في غاية القصور، في غاية البعد عن الجوهر الحقيقي للإيمان.

وذلك إما لأنهم لا يعرفون مفهوماً آخر للإيمان، غير هذا المفهوم البارد عن الطمأنينة وراحة البال والهدوء والدعة، وهذا يعني أنهم جاهلون.

أو أنهم يحاولون الترويج لهذا المفهوم المنقوص مستخدمينه كطعم في استدراج المزيد من الناس المتعبين المرهقين، بوهم السعادة وراحة البال المنشودتين ..**وما دام الطعم مزيفاً، فالصيد سيكون متفلتاً..**

وهذا يعني أنهم أغبياء.

وبين جهل الجهلاء وغباء الأغبياء يقدم الإيمان كما لو كان حبة (فاليوم)، كما لو كان حقنة من المهدئ، كما لو كان ترنيمة تساعد الأطفال على النوم الهادئ المطمئن..

لكن الإيمان الحقيقي، يظل شيئاً آخر مناقضاً لذلك كله.

☆ ☆ ☆

واحياناً يكون الايمان ارتفاعاً حاداً في الضغط.

يكون تصلباً مزمناً في الشرايين.

يكون توتراً مرهقاً في الأعصاب.

يكون أرقاً. يكون قلقاً.

يكون انشطاراً في الروح يسبب صداعاً رهيباً في الرأس.

يكون انفجاراً في الدماغ.

يكون ألماً هائلاً يمتد على طول الأعصاب وعرضها وعمقها.

طمأنينة؟ راحة بال؟ هه! إنهم لا يعرفون.

دعك من جهل الجهلاء. دعك من غباء الأغبياء.

يكون الإيمان أحياناً - عندما يكون حقاً، عندما تمتلك الغيرة - عذاباً هائلاً.

يكون زحفاً عارياً على درب الزجاج المطحون.

يكون رحلة إلى الدرك الأسفل من جحيم المعاناة.

وذلك.. عندما يكون حقاً.

☆ ☆ ☆

المعضلة أنك عندما تمتلك غيرة على دينك، ستولد في أعماقك بالتدريج ثورة ضد السلبيات.

ستنبت لديك مجسات خاصة تستشعر بها الخطأ لتثور عليه، ستنمو عندك قرون صغيرة، خاصة بالاستشعار، وستمشي في الشارع لا يعجبك شيء فيه. لا أقول ذلك لأنه يجب أن نخاصم الناس ونضربهم ونصفعهم لنوقظهم مما هم فيه؛ أقصد فقط أن استشعارك للسلبيات سيكسر أغشية الروتين والبلادة التي تعودنا عليها.

كل المعاصي والكبائر التي نمر عليها دون أن يرف لنا جفن، كيف صارت كذلك؟

بالعادة، بالتعويد، بالروتين، بالتكرار.

شيئاً فشيئاً حاك الوقت والزمن خيوط العنكبوت والبلادة على المعصية، فصارت تكراراً، صارت روتيناً، صارت عادة.

(البدي) الأول أثار غضب الكثيرين وغيرتهم، لا بد. (البدي) العاشر أثار حفيظتهم. أما مع (البدي) المئة، فقد احترموا أنفسهم، وغضوا البصر..

وهنا أتحدث عن العباد الصالحين، الذين يغضون البصر..

الغيرة - في الداخل - تكسر جدران الروتين، تقشط شرنقة الرتابة، تزيح عناكب التكرار، فإذا بالمعصية مهما تكررت، تظل معصية، تظل قادرة على استفزازك وإثارة غضبك ورفضك وتمردك..

الغيرة تجدد رفضك، تشحذه كالسيف، تحده كالخنجر، تجعل عينيك أكثر بصيرة، وأحدَّ بصراً.

الغيرة تكنس الألفة عن المعصية، وتبقيها غريبة هجينة حتى تظل عينك رافضة لها، وتظل المعصية جسماً غريباً ترفضه سائر أعضاء الجسم..

الغيرة تحدد انتماءك. تجعل لك موقفاً من كل شيء. وتأخذك من الحلول الوسط وأنصاف الحلول والمواقف الباردة الباهتة، وتنقلك من حالة اللالون واللاطعم واللارائحة إلى حالة شديدة الوضوح، شديدة التميز.

الغيرة تديم قدرتك على الرفض. وعلى الانتماء. وتجدد الحياة في داخلك.

ثورة تنمو في داخلك ضد كل ما هو خطأ في هذا العالم، كيف لا تتفجر الحياة في داخلك؟



نعم. ابشر بالألم، وبعض الايمان ألم.

أبشر بالحزن، وبعض الإيمان حزن.

أبشر بالغضب، وبعض الإيمان غضب.

أبشر بالحسرة، وبعض الإيمان حسرة.

دعهم يبشرون بملكوت السعادة القادمة والطمأنينة الزائلة. البشارة الحقيقية مختلفة، معجونة بالواقع، مصهورة بالتجربة، متفاعلة مع الغيرة؛ هوية الإيمان الوحيدة والحقيقية..

نعم أبشر بالألم والحزن والغضب والحسرة، ومن كان مؤمناً ولا يتألم على ما يدور حوله، ولا يحزن للحالة التي وصل إليها الناس، ولا يغضب وهو يرى إخوانه وأقرانه واغلين في معاصيهم، ولا يتحسر عليهم وهو يراهم يعدون لدخول جهنم، فليراجع إيمانه..

الألم والحزن. الغضب والحسرة.

والغيرة، الغيرة، الغيرة القاتلة.

هذه هي الدوافع الحقيقية الوحيدة التي تجعلك تعمل عند ربِّ العزة، تعمل لدينه، تدعو الناس إلى دربه، وترشدهم إلى طريقه.

لولا أنك متألم، وحزين وغضبان، ما كنت ستفعل شيئاً.

لولا أنك غيران، وتكاد تقتلك غيرتك، ما كنت ستتحرك.

لولا أنك غيران، كنت ستكون (في أحسن الأحوال) مجرد موظف روتيني دأبه التثاؤب والتأجيل.

لولا أنك متألم وحزين وتكاد نفسك أن تذهب عليهم حسرات، لكنت مثل ذلك العبد الصالح في تلك القرية الفاسدة.

به يبدأ العذاب.

☆ ☆ ☆

وهذا الألم الذي هو جزء من كيمياء الإيمان وتفاعلاته، له أكثر من وظيفة، إضافة إلى أنه دافع العمل الأساسي..

هذا الألم يطهرك، ينقيك من شوائبك، يخلصك من ذنوبك، ينقيك منها..

هذا الألم يأخذك في درب، ربما صعب، ربما وعر، لكنه يأخذك صعوداً.. يرتقي بك إلى الأعلى.. يعليك ويعلو بك.

هذا الألم يسمو بك، ينقلك إلى عالم آخر، عبر سلم مضيء، كل درجة تضيء بلون مختلف، وتؤدي إلى درجة أخرى مختلفة..

إنه ألم ظاهره فيه العذاب، لكن باطنه فيه اللذة..

إنه الألم الجميل، الألم النبيل، الألم الذي يعطي المعنى للحياة ويجعلك تزيح آلام الآخرين..

إنه ألم نادر ومضيء..

فإذا وجدت في نفسك بعض هذا الألم، إذا أحسست في داخلك بهذا الشعور الذي هو مزيج من الغيرة والغضب والحزن والحسرة، فلا تحاول أن تهدئه، لا تحاول أن تتخلص منه، لا تأخذ المسكنات لتميت هذا الشعور.

أقول لك: تمسك به بيديك. عض على هذا الشعور بأسنانك وأضراسك. إنه جزء من محبة الله لك، إنه هدية من ربِّ العزة إليك؛ إنك تغار من أجله، وتغضب من أجله، وتحزن من أجله..

وهذا يعني أنه قد اختارك لتعمل عنده، تأخذ بأيدي الناس لترشدهم إلى دربه، تقربهم منه، توصلهم إليه، تدلهم على الطريق المؤدي إليه..

فإذا شعرت بالألم، فتألم، ولكن افرح، ولا تحاول أن تهدئ هذا الألم، ولكن تمسك به، ودعه يدفعك إلى الأعلى.

تمسك بهذا الألم، شدّ عليه ودعه يشد عليك. ففي أوقات كهذه، أقول لك: قلما يصيب ذلك..

☆ ☆ ☆

وأقول لك أيضاً، عندما يتركز كل ألمك ومعظم

غيرتك وجلّ غضبك على شخص واحد، يصير محوراً لآلامك وغيرتك وغضبك وحزنك وحسرتك..

إذا تركزت دوافعك على شخص واحد، صرت فجأة لا تحتمل فكرة أنه لا يصلي، ويؤلمك جداً - بل يكاد يذبحك ألمك - أنه لا يبالي، أنه لا يصلي، وتذهب نفسك عليه حسرة، حسرة وهو غير آبه وغير عابئ أنه ذاهب إلى جهنم.

إذا تركزت دوافعك على شخص واحد، تكاد غيرتك عليه أن تقتلك أنت قبل أن تقتله هو، وأنت تراه غافلاً منهمكاً في المعاصي بعيداً عن الله وعن طريقه..

إذا حدث هذا لك، فتمسك به أيضاً، **فقلما يحدث ذلك.**

وإذا حدث لك ذلك، **فاعلم أنه سبحانه وتعالى قد اختارك أنت ذاتك لتنقذ شخصاً ما من النار..**

وأنه قد اختار لك أن توظف غيرتك وآلامك بشكل أكثر فعالية وتركيزاً، وبدلاً من أن تسفح غيرتك كلمة هنا ونصيحة هناك، غضبة هنا وحسرة هناك، فإن الله قد اختار لك أن توجه غيرتك وتستثمرها لإنقاذ شخص واحد من النار..

شخص واحد فقط يصير، لفترة على الأقل، قضية حياتك..

إذا حدث ذلك لك، فلا تخف، وخض التجربة، وتمسك بذلك..

☆ ☆ ☆

يخيل إلي أحياناً أن أحداً لن يدخل الجنة، إلا إذا كان قد أخرج واحداً غيره من النار.

إنها الطبيعة الجماعية لهذا الدين، لا أحد يدخل الجنة إلا إذا كانت يده بيد شخص آخر، سبق له أن مد يده عندما كان معداً للنار وسحبه وأنقذه منها.

ربما سيأتي شخص ما ومعه مئات وربما آلاف، كان له يدان فقط، مثلنا جميعاً، لكنه أحسن استخدامهما، واستخدام كل حواسه وجوارحه، فإذا به يسحب الآلاف من جهنم.

وربما سيأتي أفراد ومع كل منهم عدة أشخاص سحبوهم من جهنم سحباً مضنياً ومؤلماً، جمعوهم عبر سني حياتهم.

وسيأتي أفراد مع كل منهم شخص واحد فقط. شخص واحد، قضوا عمرهم وهم يحاولون إنقاذه، كانت قضية حياتهم أن يسحبوه من جهنم، غاروا وتألموا وغضبوا، لكنهم في النهاية نجحوا. وها هم على أبواب الجنة يداً بيد.

شخص واحد فقط، عبر العمر بأكمله.. (لا

تنتقص من ذلك، لا تستصغر الرقم واحد، يا ليتنا نكون منهم، ساحبين أو مسحوبين!)..

ولكن سيأتي أيضاً أشخاص، أيديهم فارغة، ليست متعلقة بيد أحد، لم ينقذوا أحداً من جهنم، مرت حياتهم دون أن يحاولوا، دون أن يمدوا يداً، دون أن يتألموا لدرجة أن يعملوا على إنقاذ أحد من هناك.. ربما مرَّ بهم الشعور، ربما خطرت على بالهم الفكرة، لكنهم تقاعسوا وتذكروا ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وتثاقلوا ووضعوا أيديهم في جيوبهم..

وها هم واجمون، مرعوبون وأيديهم الفارغة، على مفترق طريق بين الجنة والنار..

رغم أن رحمة ربك واسعة، إلا أني متأكد، أن انتظارهم يومها سيطول، وفي يوم كهذا، حتى الانتظار سيكون عذاباً ممضاً لا مثيل له..

لكني لست متأكداً، هل إن العبد الصالح في تلك القرية الفاسدة، سيكون مع هؤلاء، أم إن أمره محسوم؛ وإن النار قد سعرت به؟.

☆ ☆ ☆

لذلك عندما تتركز غيرتك على شخص واحد، فاعلم أنها بطاقة دعوة منه عز وجل للدخول - بهذا الشخص - إلى الجنة.

فإياك إياك أن تشيح بوجهك عن دعوته، وإياك إياك أن تتظاهر أنك لم تقرأها، ولم تشاهدها، ولم تفهم عنها..

إياك أن تضع يديك في جيبك، وتترك يد هذا الشخص تتفحم في جهنم..

إياك أن تقول: ولا تزر وازرة وزر أخرى. وتمشي بالقرب من الحائط..

فقد يبدأ العذاب بك، وينهار الحائط عليك..

☆ ☆ ☆

لكن اعلم، أن الألم والغيرة والحزن والغضب، تكون أشد ما تكون عندما تتركز حول شخص واحد..

يصير الموضوع ساخناً جداً، شائكاً جداً، شخصياً جداً..

فجأة يصير هناك إنسان تتجسم فيه مسألة الجنة والنار بشكل شخصي.. ستتخيله وهو يحشر إلى جهنم، والأغلال والسلاسل في عنق، والزبانية يجرونه على وجهه، وأبواب جهنم تفتح له، والنار تسعر به، والنار تلفح وجهه.. وتلتهم يده..

ستتوقف عند يده، ستتأملها طويلاً، إنها يده التي يمكن لك أن تنقذه بها، فقط إذا مددت يدك وسحبت..

وسيكون الأمر مؤلماً جداً، مؤلماً بتركيز، بالضبط كما ركزت غيرتك على شخص واحد.. فإن الألم سيكون عالي الكثافة والتركيز..

وسيكون هذا الشخص - على الأكثر - شخصاً تحبه: أخاً شقيقاً، أو صديقاً، أو أختاً، أو حتى أمك أو أباك..

وقد يكون شخصاً آخر غير هؤلاء أراد الله به خيراً فألقى بمحبته في قلبك، كاستدراج لك لكي تمد يدك وتسحبه من جهنم..

ولن تفعل هذه المحبة سوى أن تزيد الألم في داخلك..

سيكون الألم شديداً، سيكون من الصعب تحمله..

لكن من قال: إن الجنة سهلة المنال؟ نعم سيكون ذلك صعباً جداً؛ الألم والغيرة والتجاذب والتنافر وكيمياء الأرواح الغامضة، وإبليس الذي سيقف بينك وبين هذا الشخص، وقد تضطر إلى مواجهته شخصياً، وأقاويل الآخرين وهمساتهم في أذنك وأذنه على السواء..

نعم، سيكون ذلك مؤلماً جداً، وصعباً للغاية. المهم ألا يكون فوق طاقتك على الاحتمال..

ستتعب؟ ربما. المهم ألا تنهزم. ستصير أعصابك

مثل شبكة مهترئة أشبعتها الأسماك عضاً وتخديشاً. المهم ألا تنسحب..

نعم. إنها الجنة وطريقها كما تدري ليس سهلاً. لقد خلقها الله وقد حفَّها بالمكاره، هذا هو تصميمها. هذه هي خريطتها، لكي تصل إليها لا بد أن تمر بالمكاره، لا بد أن تمر بالصعاب.

من قال لك: إن درب الجنة معبد بالورود؟.

☆ ☆ ☆

وبالمناسبة، عندما تكون غيرتك على دينك حقيقية وصادقة، وعندما يكون ألمك حقيقياً ونابعاً من أعماقك، وعندما تكون أحزانك وحسراتك خالية من الزيف ومن الرياء، فإنك في الحقيقة لا تملك الخيار، لا تملك إلا أن تواصل زحفاً على ذاك الدرب المفروش بالزجاج المطحون..

عندما تكون غيوراً بصدق، لا تراجُعَ لا انسحاب، لا يمكنك أن تترك ألمك وقلقك ومخاوفك وحزنك، لا يمكنك أن تشفى من ذلك، لا خيار في ذلك، لا يمكن لك سوى أن تواجه وتخوض التجربة، ورغم الألم تمد يدك لتنقذ هذا الشخص أو ذاك من جهنم، وسيكون مؤلماً أقصى الألم أن تمد يدك أنت فيرفضها هو، لكن، ولأن الجنة ليست سهلة بتاتاً، فإن ذلك ما يحدث في الغالب، **يرفض الشخص أن تأخذه بيدك،**

ويفضل جهنم، ربما لأن إبليس همس في أذنيه عنك بالسوء، وخلال ذلك سيهمس في أذنك أيضاً، كرامتك، لقد تمرغت في الوحل، ما عليك ألا يهتدي؟ لقد عملت الذي عليك..

وبين التنافر والتجاذب، وشد الحبل وإرخائه، وكيمياء الأرواح وفيزياء المادة، سيكون الألم والغضب والغيرة والحزن..

أقول لك: واجه الألم. واجه الغضب، وتمسك بالغيرة. دع ألمك يعلو بك ويعليك. دعه يرتقي بك ويرقيك.

هل قال لك أحد، إن درب الجنة معبد بالورود؟

☆ ☆ ☆

وبينما يحدث ذلك، سيأتون إليك أفراداً وجماعات، إخواناً لذلك العبد الصالح في تلك القرية الفاسدة، حاملين برودهم وحيادهم السلبي ولامبالاتهم، متمنطقين خلف آيات وأحاديث، لم يشعروا بالغيرة قط على حدود الله وحقوقه، **لكن سيحزنهم جداً ألمك وعذابك، بالأحرى سيغارون من غيرتك، وسيتنكرون خلف حزنهم عليك وخوفهم على صحتك، ليربتوا على كتفك ويواسوك ويخففوا من ألمك..**

سيقولون: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وهم قد قرروا أن الله قد شاء ألا يهدي فلان الفلاني، وخصوصاً على يديك؛ لذلك

تستطيع أن تتخلص من آلامك وقلقك وغيرتك، ما دمت ستعلقها على شماعة المشيئة الإلهية التي لا تقاوم..

إنهم يقولون لك، ظاهراً لترتاح، وباطناً لتصير مثلهم: ما عليك ألا يؤمن. لقد فعلت ما عليك بل وأكثر، قل كلمتك وامض..

ببرود الموظف المختبئ خلف السياقات الجامدة، يختبئون خلف الآيات القرآنية، يرتلونها بإتقان. يقولونها بوضوح. صوتهم عالٍ؛ لديهم حجة، لديهم دليل، ربما في حياتهم كلها لم يتناقشوا بهذا الحماس، ربما لم يتجادلوا مع صديق لهم - لا يصلي - بهذا الأسلوب.

لكن الآن، ومعك، ولأنهم يغارون من غيرتك على دينك، فإنهم بمنتهى الحماس يجادلون. **غيرتك تذكرهم بدياناتهم. إيجابيتك تفضح سلبيتهم. حيويتك تنعي موتهم.**

لذلك فهم يحاولون معك، مختبئين خلف حزنهم عليك وخوفهم على صحتك، وخلف تلك الكذبة التي جعلوها سائدة، خلف ذلك التزييف الذي روجوا له.. عندما يقررون أن الله لن يهدي من أحببت..



يا صديق..

لا أزال أذكر - وربما لن أنسى ما حييت، وربما حتى بعد أن أموت - مرة كنت في حالة غيرة شديدة وألم شديد على صديق لي، كان وقتها، في حالة نفور شديد، وإصرار على الذهاب إلى جهنم..

كنت أعاني الألم وأقاسيه بينما أنا جالس في الحديقة الملحقة بمكان العمل، قبل حوالي عشر سنوات، تبدو أحياناً الآن كما لو كانت ألف سنة، وتبدو أحياناً كما لو كانت البارحة فقط..

بالضبط كنت أموت، أعاني من سكرات الموت، كانت كلماته التي قالها في الليلة السابقة لا تزال ترن في أذني وتدق على طبلتها بإيقاع مجنون..

لا أزال أذكر الكلمات. (في الحديقة، ورغم أن الموضوع بعدها انتهى على خير، لا تزال تؤلمني الكلمات بعد عشر سنوات)..

لا أزال أذكر كيف استزله الشيطان وأصحاب السوء الذين لا بد أن يكون لهم وجود في كل معصية، لا أزال أذكر كيف - بعد أن استنزفت وقتي وجهدي وأعصابي لأشهر طويلة(ربما سبعة أشهر) - استطاعوا أن يأخذوه مجدداً، بعد أن توهمت أنه ثبت على ذلك الدرب المؤدي إليه عز وجل..

لا أزال أذكر المعصية التي ارتكبها ليلة رأس السنة

الميلادية، أو الليلة التي قبلها؟ وكيف قدر الله لي أن أكتشف أنه ارتكبها، وكيف قادتني غيرتي ودفعني غضبي، أو ربما حماقتي، إلى أن أواجهه بما عرفت..

لا أزال أذكر كلماته، وبعد ألف سنة من الآن سأظل عاجزاً عن تكرارها، حتى مع نفسي، لا أزال أذكر نبرة التحدي والجرأة على الله، لا أزال أذكر الكلمات التي كل حرف منها يُسقط ربما سبعين عاماً في جهنم.. سأتجاوز ذلك، وبعد ألف سنة سأظل أتجاوز ذلك..

اليوم التالي، لا أدري كيف طلع الفجر علي، لكني أدري أن سكرات الموت نفسها أخف مما كنت أعانيه..

وفي تلك الحديقة الملحقة بمكان عملي جلست، والحديقة بالمناسبة كانت ولا تزال رائعة، لكن لحظتها كانت لا تذكرني إلا بجهنم..

كنت أشعر ساعتها بأن الأمر صار فوق طاقتي على الاحتمال. كنت ببساطة أجد نفسي عاجزاً عن التحمل، وفي الوقت نفسه لا أعرف كيف أخرج من هذا الأمر..

كنت أنازع، دونما مبالغة.

كنت أتأرجح مثل لاعب سيرك يسير على حبل مشدود متوتر، هو حبل أعصابي، تحتي النيران المتأججة والأسود غير المدربة! تفتح أفواهها جائعة..

كان قلبي معصوراً مثل قط مذعور محاصر في أعلى الشجرة، على جذع جاف متهاو في ليلة ممطرة مظلمة، لا قمر فيها، وليس سوى أصوات الكلاب النابحة وأعينها وأسنانها تقدح شرراً.. تحت الشجرة.. كنت أحتضر.

وجاءا، بما كان يبدو أنه مصادفة، اثنان من العباد الصالحين في القرية الفاسدة، واحد منهما كنت أعرفه منذ زمن ، والآخر تعرفت عليه..

لاحظا احتضاري (!) ولم يكن الأمر يحتاج إلى كثير دقة الملاحظة.

وبسذاجة وبساطة المستجد قليل الخبرة، سردت لهما القصة بأكملها، لم أكن أبحث عن النصيحة بقدر ما كنت أبحث عن التنفيس..

لكنهما كانا مستعدين لإسداء النصح والمشورة، لقد كانا محترفين في ذلك..

لا أزال أذكر الكلمات، وحسن الأداء، وقوة التأثير.

واحد منهما كان يمتلك تلك الخاصية المبهرة، الإقناع، كان يمتلك وجهاً نوراني القسمات، تراه فتحبه وتتأثر به، وزد على ذلك حسن أدائه لما يقول، وزد على ذلك كله صدقه فيما يقول..

وبهدوء بدأت الكلمات تتسلل إلى أعصابي.

كنت متألماً، والمتألم يبحث - ساعة الألم - عن أي

شيء يخفف ألمه، حتى لو تطلب الأمر قطع رأسه..

بهدوء بدأ الخدر يسري في عروقي، لم تكن الكلمات غريبة عني ولا جديدة علي.. لكن الموقف برمته جعلها أكثر تأثيراً علي..

كان الكلام مكرراً، لكن كان هناك الوجه النوراني وحسن الأداء، وربما الصدق..

وكان هناك أيضاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾..

كدت أستسلم: لم يكتب الله له الهداية إذن، ليس على يدي على الأقل، وليس الآن.

أخرجوا عدتهم من حقائبهم، حُقَن (المورفين) طبعاً، وأخرجت يدي لأستلم التخدير في الوريد..

وبينما صديقي نوراني الوجه يكرر الآية بإتقان ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.. تذكرت شيئاً صعقني، تذكرت أن **الذي أنزلت عليه الآية لم يفهمها كما يحاول هؤلاء العباد الصالحون أن يفهموها لي، لم يستعملها قط كما يحاول هؤلاء أن يستعملوها..**

لم يحقنها في وريده، لم يحقنها في وريد أحد على الاطلاق..

على العكس من ذلك، وإذا كانت الآية قد نزلت في عمه الذي يحب - أبي طالب - والذي ظل يرفض الإيمان، **فإنه ظل حتى اللحظة الأخيرة يحاول معه، لم**

يقل قط، إن الله يهدي من يشاء، وقد عملت الذي علي، حتى اللحظة الأخيرة، لحظة النزع، ظل يحاول معه ويطلب منه كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط، يحاجج بها ربه..

لكنه مات، مات دون أن ينطقها..

وفهمت!.

لو أن صديقي مات في حادث سيارة بعدما ارتكب معصيته تلك، لكان في الآية مواساة ما، وعزاء ما، لقد قضي الأمر. هون عليك. إنك لا تهدي من أحببت.. نعم. ربما..

لكن ليس وهو بعد حي، ليس وأنا بعد حي..

ليس والأمر لم يقض بعد.

ليس ولا يزال هناك أمل.

فهمت، وانتفضت. لا أريد (المورفين). رغم الألم، لا أريد الخدر.. سحبت يدي..

وبدا الوجه النوراني محض قناع. حسن الأداء وخاصية الإقناع وقوة التأثير كلها بدت لي أسلحة جيدة في معركة خاطئة.

وهناك في أعلى الشجرة، لمحت الهدهد الغيران وهو يهدئ من روع القط المذعور..

☆ ☆ ☆

كان ذلك درساً مبكراً تعلمته وأنا لا أزال على مفترق الطرق.

من يدري، ربما لو كنت أخذت الحقنة وقتها لتغير المسار بأكمله..

ربما لو كنت استسهلت أن أتخلص من الألم آنذاك، لاستصعبت بعدها خوض الألم، ولصرت مثل الذين يتثاءبون، ثم يقولون: إنك لا تهدي من أحببت.. ثم يغضون البصر ويمضون..

ربما لو غمز الطعم، وعلقت السنارة وقتها لما كان كل شيء بيننا من البداية، ولما كنت أنا أكتب الآن، وما كنت أنت تقرأ الآن..

إنه درس مبكر جداً، تلقنته وأنا بعد أول الدرب..

وقد أثر في حياتي، وأثر في حياة صديقي ذاك، آنذاك.

وها هو يؤثر في حياتك أنت..

وربما في حياة آخرين غيرك، من بعد..

☆ ☆ ☆

دعك مرة أخرى من غباء الأغبياء، ومن جهل الجهلاء.. أولئك الذين يضعون الإيمان في قوالب جامدة مجردة؛ طمأنينة وهدوء، وراحة بال، وسير بطيء كئيب قرب الحائط..

إنهم لا يعرفون..

ومن ضمن الأشياء التي لا يعرفها هؤلاء، الذين هم إما أغبياء أو جهلاء، أن هذا الشعور الذي هو مزيج من الغيرة والغضب والألم والحزن، والذي يدفعك أحياناً للأخذ بأيدي الناس، ليس ترفاً إضافياً تحصله لتزيد من أجرك..

ليس طريقة إضافية لاستحصال المزيد من الأجر: مثل ركعتي الضحى، وصدقة السر، وأداء الأذكار اليومية.

إنه ليس منة تمنها عليه عز وجل لتقول بعدها: لقد اهتدى فلان على يدي..

أريد المزيد من الجنة..

لا. ليس الأمر (إكسسواراً) إضافياً في تجميل عباداتك.

إنه في الصميم منها، إنه الذي يعطيها الدفعة، إنه المحرك الذي يمنحها الحيوية؛ هناك في الصلاة، هناك في الدعاء، هناك في الأذكار، وهناك في الخشوع.

سأقول لك شيئاً لن يفهمه الأغبياء ولن يستوعبه الجهلاء؛ إنه سر صغير غالباً ما أحتفظ به لنفسي، ولكن لن أبخل به عليك الآن..

عندما يكون عندك هذا الشعور من الغيرة

المتزجة بالغضب والألم، متركزاً كله على شخص واحد تريد أن تأخذ بيده لتسحبه من جهنم..

عندما يكون عندك شعور مثل هذا، تجاه شخص ما، فإن عباداتك كلها تتغير، طعمها يصير مختلفاً، بالأحرى، يصير لها طعم، وطعم رائع أيضاً..

تعلو بك عباداتك، ترفعك، ترقيك، تسمو بك..

سأبوح لك أكثر: الفترات التي عانيت فيها من الفتور في العبادة، والملل في الصلاة، والتثاؤب والكسل وقلة الخشوع، كلها كانت فترات خالية من شعور كهذا، مركز نحو شخص واحد..

وعلى العكس من ذلك، الفترات التي ارتفعت فيها، وتسلقت ذرا الخشوع، وأحسست بحلاوة الدموع، وتذوقت طعم العبودية الحقة، كلها كانت فترات فيها شعور كهذا.. وشخص كهذا..

هل من تفسير؟ أم إن أموراً كهذه تحدث بلا تفسير، بلا تبرير..

ربما. لكن لدي أنا تفسيري لهذا الأمر..

في كل ما تفعله في حياتك، من سعي للرزق أو طلب للتعليم أو سفر أو أي شيء آخر، **هناك مجموعة من الأسباب المادية لا تستطيع أن تهرب منها أو أن تشيح بوجهك عنها..**

في كل شيء، هناك أسباب مادية موضوعية، طبعاً

هي صادرة عن مسبب الأسباب، ولكن هذا موضوع آخر.. في كل شيء، هناك الأسباب وهناك المادة، وهناك تفاصيل الأسباب وتعرجاتها وتداخلاتها..

وسيكون ذلك موجوداً في كل الأمور الحياتية اليومية. مهما حاولت أن تركز في كون الأسباب صادرة عن مسبب الأسباب، مهما حاولت أن تحذفها من تركيزك وذهنك وخلفية بالك، فستظل موجودة، تشتت عليك تركيزك، تغبش عليك الرؤية وتشوش بصيرتك ..**دوماً ستنتصب الأسباب بينك وبينه، مثل أوثان جاثمة على خلفية أفكارك..**

في كل شيء تفعله طيلة حياتك، ستكون هناك الأسباب، وسيكون هناك تلك المعادلة الصعبة بين الأخذ بالأسباب، وبين عدم الالتفات إلا إلى مسبب الأسباب..

كل شيء إلا شيء واحد فقط ممكن أن تفعله في حياتك وليس فيه أسباب .**فقط اتصال مباشر.**

إنه الأخذ بالأيدي. إنه هذا الايمان الغامض والهداية التي تتحرك بطرق لا أحد يفهم كنهها.. إنه هذا الشعور الذي يدفعك دفعاً لارشاد الآخرين الى الدرب إليه..

لا أسباب هنا. لا شيء محدد في هذا الموضوع. لا وصفة جاهزة أو حتى غير جاهزة، مهما تحدثوا عن أساليب للدعوة وشروط للتبليغ، فالأمر يظل أعقد

وأكثر غموضاً، ما يثير دموع شخصٍ ما قد يثير استهزاء آخر. ما ينفر منه شخص قد يجذب آخر. الشدة التي قد تشد شخصاً في وقت، ستضيعه في وقت آخر. والرقة التي ترقق قلب شخص في وقت، قد تميعه في وقت آخر..

عندما يتعلق الأمر بالإيمان، بالهداية، لا خطة هناك، ولا أسباب..

عندما يتعلق الأمر بالقلوب، فالأمر هناك عند مقلب القلوب بشكل مباشر..

لا أنصاب هنا تنتصب بينك وبينه، الأمر عنده له، وليس بينك وبينه حجاب..

لا أسباب تشتت عليك تركيزك، لا تفاصيل تغبش عليك الرؤية..

وعندما تكون بالقرب من عملية الهداية، أو طرفاً فيها فإنك تكون على تماس مباشر من هذا القرب؛ تستشعره بشكل رهيب، تحس القرب وتلتذ به..

في أي شيء عدا هذا، هناك دوماً التفاصيل النسبية، عندما تطلب منه عز وجل توسعة في الرزق مثلاً أو تحسناً في الصحة، فإن هناك ما سيشوش عليك القرب، حتى لو استجاب الله لك. رزقك المزيد؟ فلان جاء بالعمل الفلاني، الصفقة الفلانية كانت مقررة منذ زمن. تعاملك جيد والناس تقبل عليك.

تحسن في الصحة؟ الدواء الجديد جاء بنتيجة بعد فترة. الطبيب الأخير كان أفضل. المرض نفسه يأخذ أطواره وينتهي..

كل ما تطلبه في حياتك ويتحقق، يرتبط بشكل أو بآخر بأسباب مادية ستظل الوساوس تزيد من حجمها.. لكن، عندما يحترق قلبك على شخص ما، وتنتحب وأنت تدعو الله أن يهديه، يموء قلبك مثل قطة فقدت صغارها، وأنت تدعوه ثم تدعوه ثم تدعوه، أن يهديه ويثبته.

نظرياً لا أسباب هناك يمكن أن تجعل هداية هذا الشخص أمراً متوقعاً. إنه والغ في الغفلة والمعاصي... بعيد عن الله وعن دربه.. سيأتي من يقول لك: **إن العالم كله قد يهتدي إلا هذا الشخص، وحسب قوانين المنطق السائدة سيكون ذلك صحيحاً..**

وسيأتي أيضاً من يتبرع ليخبرك **أنك تنفخ في قربة مقطوعة، وأن نجوم السماء ربما أقرب مما تريد..**

وسيكون لذلك شواهده المادية.

لكن قلبك يحترق، لا يزال.

وستجد قلبك المحروق يدفعك إلى أن تنتظر هداية الناس أجمعين، لعل وعسى يهتدي بعدهم هذا..

وستفكر في أن تخرج روحك نفساً بعد آخر في النفخ في قربة مقطوعة..

ومثل طفل صغير، ستفكر في نجوم السماء، هل هي أبعد أم القمر؟.

وسيموء قلبك مثل قطة فقدت صغارها..

ولن يكون لك سواه.. لن يكون هناك إلا هو..

وستطلب منه بحرقة، بلوعة، بفجيعة، بحزن غابة تحترق، أن يهديه..

رغم الناس أجمعين. قبل الناس أجمعين. رغم القربة المقطوعة. ورغم أن نجوم السماء أقرب مما تطلب..

ستحدث لك معجزة، تنير لك الدرب..

سيحدث تغيير فجأة.**سيأتيك بعدما كنت تذهب إليه. سينجذب إليك بعدما كنت تطارده.**

فجأة سيعلن لك أنه انقطع عن المعصية الفلانية.

فجأة سيصلي، وفجأة سيذهب إلى المسجد.

وفجأة ستشرق حياتك بخبر أنه يذهب إلى صلاة الفجر، جماعة!.

لقد كان أبعد الناس. لقد قالوا لك: إن العالم كله قد يهتدي إلا هو، وقالوا: إن نجوم السماء أقرب، وإنك تنفخ في قربة مقطوعة.

لا أسباب هناك. ليس سوى مقلب القلوب الذي طلبت منه بحرقة، بلوعة، أن يهديه ويقربه إليه..

وعندما يحدث لك شيء كهذا؛ كيف يمكن ألا تخشع؟ كيف يمكن لك ألا تخضع؟ كيف يمكن لك ألا تدمع؟ كيف يمكن لك ألا تحس بالقرب، وأن تستشعر وجوده وحضوره في حياتك؟..

ستحس به وليس بينك وبينه حجاب. وليس بينك وبينه تلك الأوثان التي تنتصب في الوقائع الحياتية الأخرى..

وسينعكس هذا الاستشعار بالقرب على عباداتك كلها؛ على صلاتك، صدقاتك، ودعائك وأذكارك..

سيطرد عن ذلك كله التثاؤب والملل.. ويزرع الخشوع.. والرعشات.

ولقد بدأ الأمر كله، كما تذكر، بذلك الشعور بالغيرة والألم من أجل إيمان شخص آخر، لكن النتيجة كانت أن إيمانك أنت قد زاد.. إنها الطبيعة الجماعية لهذا الدين.

إنها دورة الإيمان.. في الطبيعة.



وهناك سر آخر سأبوح به الآن، ولا أعتقد أن أحداً غيري سيبوح به.

لقد بشرت بإيمان فيه ألم، وقلت: إن بعض الإيمان ألم.

في الواقع، ليس كل الموضوع مؤلماً، فهناك بعد الألم لذة.. (وبعض الألم لذة!!).

بل هناك لذة فائقة، لذة لعلها الذروة في اللذات الدنيوية..

لذة قصوى، عندما تمر بك تجعلك تشعر بأنك قد ملكت العالم بأسره، ملكت الدنيا وما فيها..

وهي لذة خفية، غير مصحوبة بالبهرجة والصخب اللذين يرافقان بقية ملذات الدنيا.. لكنها لذة حقيقية لا خيال فيها، لذة تغمرك تماماً وتغطس في نشواتها..

لذة فيها رعشة، هذه المرة ليست رعشة عضلية عابرة، بل قلبك هو الذي يرتعش، وعمودك الفقري كله يرتعش، وكل أوعيتك وكل شعيراتك الدموية، وكل أوردتك وكل عضلاتك..

وأيضاً يرتعش ذلك الشيء الذي هو من أمر ربك؛ الروح، وأنت لا تتخيل اللذة إلا متعلقة بمادة، بشكل، بتجسيم؛ ترف أو غنى أو جنس أو تشاوف، أو في أحسن الأحوال؛ أطفال وعائلة..

لكن ها هي روحك تلتذ، ها هي تغرق في اللذة القصوى، بل لعلها اللذة المطلقة..

ها هي ترتعش تلك الرعشة الخالدة، سيحزنك أن تنتهي وتعبر، تريد أن تدفع عمرك ثمناً بخساً من أجل أن تتكرر..

إنها اللذة القصوى بعد ذلك الألم المرير كله..

بعد أن تمرغت في الدرك الأسفل من جحيم المعاناة، بعد أن ذبحك ألمك، بعد أن صارت غيرتك مقصلة تهوي على رقبتك في كل يوم ألف مرة..

بعد تلك الرحلة المؤلمة، على الدرب الوعر.. تأتي اللذة، على الأقل أحياناً.

☆ ☆ ☆

عندما تثمر غيرتك المركزة وألمك عالي الكثافة، عن شخص شاء الله أن يهتدي على يديك.. فإنك تحصل على ما هو خير من حمر النعم، ستحصل على ما هو خير من الدنيا وما فيها، قال ذلك الذي لا يكذب أبداً: «لئن يهدي الله بك رجلاً، خير لك من حمر النعم» وفي مرة أخرى: «خير لك من الدنيا وما فيها»..

لعل ذلك أجر كثير بالنسبة إلى هداية رجل واحد؟ نعم، لكن لا تنس أننا نتعامل هنا مع الكريم الذي يعطي دونما حساب. رجل واحد فقط، تغار عليه وتسحبه من يديه وترشده إلى الدرب إليه، رجل واحد فقط تفعل معه ذاك، فيعطيك ما هو خير من الدنيا وما فيها..

إنه الكيل بمكيالين. في كفتك يوجد رجل واحد، استطعت أن تأخذ بيده، وفي كفته الدنيا، وكل ما

فيها... الميزان لا يستقيم، لا يتوازن بالمقاييس الاعتيادية أبداً، رجل واحد مقابل الدنيا وما فيها..

لكن، من قال: إن هداية رجل واحد، وإرشاده إلى طريق الله، لا يساوي الدنيا وما فيها؟

وأيضاً هل قال أحد: إن هذا الأجر - الدنيا وما فيها، أو حمر النعم - لا يستحصل إلا في الآخرة؟

الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل ذلك قط، نحن الذين فهمنا ذلك. **نحن الذين تعودنا أن نتصور أننا لن نحصل شيئاً في الدنيا، وأن أجرنا على الله سيكون فقط في الآخرة.**

في درب الهداية ذاك، بعد الألم والغيرة، عند الأخذ بالأيدي سيقول الله لك: **هاك شيئاً من اجرك على الحساب، هاك مقدمة.**

قبل أن يجف عرقك، سيعطيك - على الأقل - عربوناً..

سمّها ما شئت: تصبيرة أو مواساة أو كرماً منه عز وجل..

لكنه سيعطيك أجراً ربما جزء من الأجر الأخروي، وربما دون أن ينقص من الأجر ككل. وعندما ستستلم هذا الأجر ستجده خيراً من الدنيا وما فيها..

وستفكر أنه لو كان هذا كل شيء لكفى، لو لم يكن في الجنة غير هذا الذي وجدته هنا لكان كافياً جداً وزيادة..

سيكون هذا الأجر مختلفاً تماماً عن كل ما تتوقع. لن يسجل قصر باسمك في دوائر (الطابو).

لم تستلم سيارة حديثة آخر (موديل)..

لكن سينزل عليك شعور باللذة، هو خير من الدنيا، ومن كل ما فيها..

ستغمرك نشوة، هي خير من حمر النعم (وحمر النعم بمقاييسنا الحالية هي أغلى السيارات وأحدثها وأرقاها: الرولز والليكس والبي إم والمرسيدس)..

ورغم أن الأمر كله لن يستغرق سوى لحظات، أو دقائق في أحسن الأحوال، فإن لذة كهذه وشعوراً كهذا يكونان خارج كل مقاييس الزمان..

لو استمر هذا الشعور الدهر بأكمله، لمضى كبرهة سريعة، كلمح البصر..

إنه تصبيرة، إنه مقدمة على الحساب، إنه مواساة عن كل الألم والمعاناة والغيرة..

إنه ثقب صغير في جدار الأبعاد المادية، تشرف منه على الجنة..

ولو لم تكن الجنة سوى ذاك الثقب الصغير، لكان ذلك كافياً جداً..

إنه ثقب صغير في جدار الواقع، لكن لا يلقاه إلا من هو ذو حظ عظيم..

وفي لحظات نادرة ومضيئة، أعتقد أنني حصلت على شيء كهذا..

كنا معاً، وذهبنا معاً سيراً على الأقدام لأداء صلاة المغرب في الجامع.

كانت الصلاة قد بدأت، وكنا نسمع صوت الإمام وهو يقرأ بالفاتحة، وكان لا يزال أمامنا مسافة حتى نصل. وفي صلاة المغرب عادة لا يقرأ الإمام إلا بقصار السور..

كان علينا أن نعبر الشارع. وكانت السيارات مسرعة. عبرت أنا مسرعاً بينها. ثم التفت إليك لأرى هل عبرت أم لا، ووجدتك تكاد تركض وعلى وجهك ذلك الحزم والتصميم، فهمته دون أن تفسر، كنت تريد أن تلحق الركعة الأولى، قبل أن ينهي الإمام القراءة..

وذهلت. ذهبت عن الدنيا. لقد ثقب جدار الزمن والواقع. تحطمت فجأة الأبعاد التقليدية، صار العالم غير العالم، الألوان غير الألوان، الناس غير الناس..

نزل علي ذلك الشعور الذي أجهل كيف أصفه، والذي أنا على أتم استعداد لأن أدفع حياتي كلها ثمناً بخساً من أجل أن يتكرر..

تلك النظرة على وجهك أذهلتني. لقد صار الأمر حقيقياً

إذن. ليست مجرد صلاة. لقد بان ذلك على وجهك. إنها الهداية إذن..

وأذهلني ذلك. لقد كنت طرفاً في ذلك، **لقد استعملني الله عندما أراد أن يهديك..**

العالم غير عالم يا صديق. الناس غير الناس. والهواء غير الهواء.

أقول لك، وأقسم بالله أنه قد حدث فعلاً: **لقد خشيت على نفسي..**

ولا أدري كيف أكملت طريقي إلى المسجد.**لم أكن أمشي، كنت أطير.**

لم أكن أتنفس، كنت ألهث من النشوة.

لقد امتلكت هذا العالم، امتلكته.

بل أكثر.

الصلاة أيضاً كانت هائلة. تعرف طبعاً أن قراءة إمام هذا المسجد أقل من عادية، وأن صوته أقرب إلى القبح منه إلى الجمال. مع ذلك، كانت الصلاة هائلة، ماذا يهم صوت الإمام وقراءته وترتيله عندما يكون الله قريباً جداً؟ ماذا يهم عندما تستشعر القرب وتحس بحضوره ووجوده بشكل مباشر؟..

أقول: كانت الصلاة هائلة، لا حواجز، لا أنصاب، لا حجاب..

وبكيت. لقد كنت هناك.

وعندما انتهت الصلاة، انتابني شعور غامض بأنني الآن فقط قد عشت حقاً..

وعندما خرجت من المسجد، كنت كمن يخرج من دار السينما بعد أن قضى ساعتين في حلم رومانسي جميل.. عليه أن يهيئ نفسه قليلاً قبل أن يصطدم بالواقع..

وعندما خرجت، اصطدمت بالواقع. أذهلتني الهوة أكثر من أي وقت مضى، كانت السيارات المترفة الحديثة تمر مسرعة، يقودها أشخاص تصوروا - مخطئين - أنهم قد امتلكوا كل ما يريده إنسان..

وكانت الفتيات وبهرجتهن، وزينتهن الصارخة، وملابسهن الضيقة يسرن مائلات مميلات، وحولهن شبان في مثل أعمارهن، يدورون وينظرون ويتضاحكون ويسبون ويعاكسون..

وبين ذلك كله هناك الباعة والمشترون، يتجادلون ويفاصلون ويساومون، ثم يشترون، أو لا يشترون.. أكثر من أي وقت مضى، أحسست بأن الناس أغبياء يا صديق.

أغبياء، أغبياء غباء لا يصدق؛ إنهم يقضون حياتهم العابرة في استحصال لذات عادية جداً، لذات دون المستوى! وفوق ذلك أنها عابرة..

إنهم أغبياء. لن تستطيع أن تقيس مستوى غبائهم

إلا إذا مررت بذلك الثقب الذي مررت به. لن تستطيع أن تعرف كم هي عادية اللذات التي يفنون أعمارهم في الركض وراءها، إلا إذا انتشيت بتلك اللذة القصوى الأخرى..

نعم، الناس أغبياء يا صديق..

إنهم نيام، يقضون حياتهم في النوم، فإذا ماتوا انتبهوا، بعد فوات الأوان..

كان ذلك كله مقدمة الأجر. تصبيرة على درب الآلام، أو على الأقل إني أعتقد أنه كذلك.

وإذا لم يكن، فإني لا أعرف ما هو.

☆ ☆ ☆

يا صديق..

في كل مرة أكتب لك فيها، كنت أطمح وأطمع إلى أن تتأثر بما أكتب..

وكل مرة، كان ذروة التأثر الذي أبغيه يتمثل في دموع تهبط من عينيك..

وفي مرات معدودة - ثلاثة على ما أعتقد - حصلت على ما أبغيه، وهبطت الدموع من عينيك..

هذه المرة، أقول لك: **لا تبكِ.**

لا أريدك أن تبكي. لا أريد أن تهبط الدموع من عينيك.

هذه المرة أبغي تأثراً مختلفاً.

لا أريد تأثراً ينتهي باستعمال المنديل الورقي.

أريدك أن تشعر قليلاً بالغضب، أريد للدم أن يجري ساخناً في عروقك.

أريدك أن تشعر بالغيرة، أريدك أن تحس بالألم والحزن تجاه هذا العالم الذي فقد صوابه..

أريد أن تشعر بأن هذا الدين مثل عرضك، تغار عليه كما تغار على أختك، تصونه كما تصونها، وتحافظ عليه كما تحافظ على شرفها..

لا أريدك أن تبكي؛ عند الشرف، لا تجدي الدموع، إنما أريد الغضب، إنما أريد الغيرة.

لا أريد من شغاف قلبك أن يكون رقيقاً.

ليكن قلبك صخرة؛ ودعني أحفر عليه بإزميل الحروف والكلمات معاني الغيرة والغضب. على الأقل ما يحفر على الصخرة يبقى فيها إلى الأبد..

نعم، **ليكن قلبك صخرة**، ولكن اشعر بالغضب.

هذه المرة، لا شغل عندي بالغدد الدمعية وإفرازاتها.

إنما أريد الأدرينالين.

☆ ☆ ☆

الأدرينالين!

وما أدراك ما الأدرينالين..

في عروقنا يجري، هورمون يفرز من ضمن عدة هورمونات أخرى يفرز عند الغضب، عن القلق، عند الخوف..

وعند الغيرة بالتأكيد.

إنه المسؤول عن تسارع دقات القلب، عن تزايد النبض، عن احمرار الوجه الذي يحصل عند الغضب والخوف، والقلق.. والغيرة..

ذلك الهورمون الذي يفرز من غدة صماء فوق الكلية، يكون بمثابة جهاز لقياس مدى حساسيتك.. إنه يحول انفعالك من الداخل، حيث تكون مجرد إشارات كهربائية على الحبال العصبية، إلى الخارج: إلى الجوارح.. فتؤثر على عضلات الوجه. وعلى النبض، وعلى دقات القلب.. وعلى مجرى الدم.

الأدرينالين..

إنه يختصر انفعالاتك. يحولها إلى سائل مقنن محدد الكمية والحجم.

مع الأدرينالين، لا كذب هناك، لا زيف في الانفعالات..

مع الأدرينالين؛ لا نفاق لا رياء. كل شيء يختبر

بالكيمياء. لا مجال للتمثيل.. لا مجال لاختلاق الأعذار.. لا مجال للفّ والدوران..

الأدرينالين.. يسري في عروقك، يزيد عند القلق. عند الغضب. عند الغيرة.. وعند الخوف..

وذات يوم، سيكون هذا السائل الذي يفرز من غدة صماء شاهداً عليك.. سيترك صممه ويستجيب للذي خلقه وخلقك. وسيحسب..

كم لتراً منه يا ترى عند الشهوة؟ عند حب التملك؟ كم لتراً منه في الظلم عند الحرام؟ كم لتراً منه سبح دمك فيه عند العقوق؟ كم مرة من أجل زحام السير؟ من أجل عطل في السيارة؟ من أجل أن أحدهم أخلف في الموعد معك؟ كم مرة من أجل حرارة الجو؟ كم مرة من أجل أن الطعام لم يكن جاهزاً؟ كم مرة لأنه لم يعجبك؟ كم مرة، هكذا، بلا سبب؛ فقط نهضت من نومك وأنت متضايق؟

كم مرة من أجل غيرة حرام على ما لا يحل لك؟ كم مرة على المال؟ كم مرة من أجل أن ملابسك لم تكن مكوية كما تريد؟ كم مرة من أجل أن الماء انقطع وأنت تغتسل، أو لأنه صار بارداً جداً؟

كم لتراً منه من أجل الدنيا؟ (أم أن الكمية كلها كانت كذلك).

وأتساءل: كم مايكرو غراماً منه من أجل الله، وفي

الله.. كم مرة أفرز الأدرينالين لأن فلاناً من أصحابك لم يعد يصلي؟ أو لأنه أخذ يزني؟ كم مرة من أجل أن الناس لا يصلون؟ كم مرة من أجل المائلات والمميلات، ومن أجل الشبان الذين حولهن؟

كم مرة من أجل أن الناس لا يبالون، ولا يهتمون، وهم إلى جهنم سائرون؟

كم مرة من أجل حدود الله المنتهكة، وحقوقه المهدورة؟

كم مرة أفرز الأدرينالين غضباً، غيرة. ألماً لله؟

أم إن ذلك أصلاً لم يحدث، ولم يخطر في بالك أنه يجب أن يحدث؟

☆ ☆ ☆

ذلك العبد الصالح، في تلك القرية الفاسدة.

طبعاً كانت عنده مشكلة في الأدرينالين..

☆ ☆ ☆

ولأنه في عروقي دم، وفي دمي أدرينالين، فإني يجب أن أغار..

قل لي، كيف لا أغار، والسماء نفسها تغار، وكل يوم تقول لرب العزة: يا رب اتركني أطبقها عليهم.. فيقول لها: لا..

وكيف لا أغار، وحتى البحر البارد يغار، وكل يوم،

كل يوم! يقول لربه: يا رب اتركني أغرقها عليهم.. فيقول له: لا..

وكيف لا أغار، وحتى الأرض التي تسير عليها تغار، وكل يوم تقول لله: يا رب اتركني أخسفها بهم.. فيقول لها: لا..

وكيف لا أغار، والله نفسه، في عليائه يغار.. ولأنه يغار فقد خلق لنا الجنة، حتى يجذبنا إليه، وحتى لا نذهب إلى سواه..

ولأنه يغار أيضاً، فقد خلق النار، حتى يكرهنا فيمن سواه، ويزيد اندفاعنا نحوه..

ولأنه يغار فقد تنزل عفوه ومغفرته ومودته ورحمته.. مهما ابتعدنا عنه سيظل فاتحاً بابه..

ولأنه يغار علينا، فهو الذي يأتي إلينا بدل أن نذهب نحن إليه، وكل يوم ينزل عارضاً رحمته ومغفرته وإجابته للدعوات..

ولأنه يغار علينا فقد أنطق الطبيعة باسمه، وجعلها تشير إليه، وتدل على عظمته وقدرته..

ولأنه يغار علينا فقد أرسل الرسل وأنزل الرسالات، والله ما كان في حاجة لذلك، فكل ذرة من ذرات الكون تدل عليه.. وترشد إلى دربه.. وتسهل الوصول إليه.

ولأنه يغار علينا، فقد قدر ولطف وهدانا إلى

الطريق إليه، ويسر لنا القرب منه واللجوء إليه، وحبب لنا الرجوع له، بعد الغياب عنه..

ولأنه يغار علينا، فقد حدّ الحدود، وأنزل الناموس، ووضع الشريعة ميزاناً مستقيماً، لا يزيغ عنها إلا هالك.. لا يزيغ عنها إلا من لا غيرة عنده..

فقل لي: كيف لا أغار والكون كله يغار؟ وخالق هذا الكون أيضاً يغار.

رغم أننا ربما، لا نستحق ذلك..

☆ ☆ ☆

فلا تسألني: لماذا أغار، بل اسأل: لماذا لا تغار؟

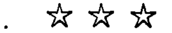
وإذا لاحظت يوماً أن غيرتي قد انتهت، فاعلم أني مت، وترحم علي.

وإذا استطعت أن تصلي، فصلِّ علي..

وإذا لاحظت يوماً أن غيرتي قد انتهت، فاعلم أني أنا الذي انتهيت، وأن قلبي صار مجرد مضخة، وعروقي محض مجار، يسري فيها دم بارد وفورمالين.. ومواد حافظة..

إذا أردت التأكد من موتي، فلا تَقِس النبض في عروقي، ليس في ذلك إشارة موتي أو دليل حياتي، ولكن قِس الأدرينالين في دمي..

اقول لك، به فابدا..





Light in the Galaxy

ADRENALINE

Adrīnālīn

Aḥmad Khayrī al-'Umarī

سلسلة من الرسائل المولودة من رحم الدعوة ، المتفلتة من الأبراج العاجية للوعظ التقليدي ، المعجونة بتوتر الواقع والناس الحقيقيين.

إنها رسائل مكتوبة من أجل إنسان واحد فقط، لكنه إنسان حقيقي: قد يكون أي واحد منا ، بكل خفاياه وخباياه وخطاياه ورغباته وخيره وشره.

إنه الإنسان ، بمطلق حاله، و حياته ، لو كانت بعيدة عن الله ، فإنها ستكون كما لو كانت في مجرة معزولة ومظلمة و نائية..

ولأنه لا شيء غير الإيمان يمكن له أن ينير تلك الظلمة - فإن تلك الرسائل تدعوه إلى أن يحفر في أعماقه، تدعوه إلى أن يستحضر في أعماقه: ضوء المجرة..

SROUR ALWANI 2005

ISBN 1-59239-472-8
9 781592 394722